كلمة العدد

فلسفة التقدم و بناء الإنسان

رغم حصول التحول السياسي و الخلاص من عقود الديكتاتورية و الشمولية نحو الحياة الدستورية الديمقراطية البرلمانية.. الا اننا لا نزال نشعر أن هذا التحول عبارة عن بنية فوقية يشيد بنيانه على إهمال متعمد و تقصير واضح في التأسيس الصحيح للبنى التحتية و اعني بها بناء الإنسان العراقي فشرط التقدم ان يبنى بناءً قيمياً عقلانياً نقدياً موضوعياً

لقد أحدثت ثورة تموز ١٩٥٨في المسار الاجتما-سياسي في العراق متغيرات كثيرة على مستوى القيم و أخلاق العمل السياسي و الاجتماعي ،بل و الفاعلية الاقتصادية على مستوى الدولة والفرد ،و ما أن حلت سنة ١٩٦٣ حتى تعرض البلد إلى (سلطة عدوانية)تقوم على أيدلوجية سوداء شمولية الطابع عنفية النزعة،ميزتها الأساس مصادرة الحقوق والحريات تجربة منحت (الحزب) كل السلطات،وولته على كل الموارد والامتيازات يتصرف بها على معيار الولاء السياسي الأضيق فقط.

ولم تعالج فترة (١٩٦٤-١٩٦٨) هذه التشوهات في المسار الأخلاقي و العقل السياسي العراقي بل مارستها هي ايضاً ولكن بشكل اقل حدة.. فلقد تحولت الطائفية السياسية من مكمن داخلي إلى سياسات معلنة، وأعقبتها الطائفية الثقافية وتحولت سمة الاعتزاز بالقومية إلى ايديولوجية عنصرية عدوانية تنظر للأخر القومي نظرة دونية أتهامية ،وأصبحت الدولة هي خزينة الموارد و الرواتب و الرزق بل والوجود و الحياة، وحلت الدولة من حيث الولاء محل القيم النهضوية التي كان المفترض أن تكون الأهداف و المرامي والغايات التي تتجه نحوها كل النشاطات المجتمعي بعد التحول من الأنموذج الملكي إلى الجمهوري ، ثم جاءت فترة ١٩٦٨-٢٠٠٣ و كانت عبارة عن ربع قرن مأساوي تميز بالقسوة و التدمير الممنهج للقيم المجتمعية الناهضة ، فقد تحول الولاء فيه من الولاء

للوطن إلى الولاء للحزب ثم للشخص ، وأصبح الحزب مصدر الثقافة وصار التوجيه الحزبي هو نظرية العمل و غاب البرنامج الوطني و التنافس السياسي في مضمار التقدم و تكلمت الصحف و المجلات و التلفاز و المذياع بلغة واحدة ،وعمم هذا الأنموذج على مراحل التعليم من رياض الأطفال حتى الجامعة ، ثم أصبح الانتماء لحزب السلطة رديفاً للممارسة اليومية اللازمة التي يجب أن يؤديها العراقي طقساً سواء آمن به أو لم يؤمن ، وبذلك سقطت الذات الفردية ،والتفكير الوجداني، و التأمل المتفرد غير الخاضع للإرادة الجمعية سواء كانت أرادة حقيقية أو إرادة مفروضة .

ان اول انهيار في هرم القيم الإنسانية ،أن الإنسان العراقي افتقد في تلك الأوضاع فردانيته، و حقه في التفكير المستقل و التعبير عما يفكر فيه،وثاني انهيار أن التفكير بمصير البلاد غيب عن العقول وحل محله التفكير بالخلاص الفردي من الأسر الفكري، وشاع إسقاط أو إقالة العقل والعقلانية لصالح الخرافة والثقافة الخطابية وثالث انهيار حصل حينما أصبح النقد و النزعة النقدية ممارسة ممنوعة تفضي بصاحبها إلى السجون أو الإعدام ،وحل الخوف والرعب بدل سلوك الشجاعة و التفكير بصوت مسموع .

في ظل هذا الوضع تحول الناس جميعا إلى متهمين وخائفين وعليهم تقديم إثباتات يومية أنهم موالون للسلطة الحزبية وعليهم ان يبرهنوا وان عقيدتهم الدينية لا تعارض ولاءهم السياسي بل يتنازلون صراحة عن (عقيدتهم،وعشيرتهم ، بل حتى عن أنفسهم من اجل إثبات أنهم مخلصون للتجربة السياسية رغم أنها كانت موشحة بالدماء و المآسي والويلات والقسوة واشد إشكال الإرهاب التي تمارسه الدولة ضد مواطنيها فنما في نفوسهم سقوط الشعور بالتضامن من اجل الحقيقة و تغلبت الرغبة غير المسوغة في الحصول على الخبز على حساب الحفاظ على الكرامة و الاستحقاقات الإنسانية

لقد غادر الناس الذين حسبوا أنهم ملاحقون الى خارج البلد.. فعاشوا هناك غرباء،واحسوا أنهم عالة على تلك الدول و لاجئون و شعروا بالقلق على وجودهم.. فهم كانوا مهددين أيضاً حتى لقد اجبر اغلبهم على أن يكونوا جزءاً من تفكير (دول المنفى) حفاظاً على الوجود فسقط الوجدان الوطني امام القلق على الوجود لذلك فلم يفكروا في

أن يمتلكوا المهارات ، ولم يفكروا في الحصول على الشهادات الأكاديمية ولم يتهيئوا الخبرة لكي يعودوا للبلد فيديرونه على وفق نماذج الدول المتقدمة ،عادوا و في أعماقهم نزعة الانتقام ،و الشك ،والحذر ،بل في أنفسهم هاجس كبير من الخوف على الذات من أولئك الذين تعايشوا مع التجربة الديكتاتورية ،بصرف النظر عن أنهم كيف تعايشوا فتنامى في نفوسهم عنصر الشك و عدم الثقة بهؤلاء لتصورهم أن ذلك الرعب لم تقف أمامه بقية من دين،أو صبابة من فروسية أو شيئاً من الشجاعة أو تصديقاً لانتماء ...

لقد بنى المنفيون من وطنهم هواجسهم ان هذه الدفاعات المفترضة إزاء الاستلاب الديكتاتوري قد تلاشت عند إخوانهم الذين لم يحصلوا على فرصة الهروب من الوطن و اللجوء للغربة وربما للاغتراب فكان وجودهم احياء على حساب مبادئهم.

و الحقيقة ان الذين:افتقدوا لهذا الخيار قد عاشوا ثلاث تجارب عميقة الأثر في التكون النفسي و هي(: إجبار الإنسان على قتال أخيه في الوطن تحت مسمى مقاومة التمرد الكردي،وإجباره وكانت الثلاثة سقوط قيم انكار المنكر تحت شعور الخوف من الجوع ضرب تجربة جديدة جاءت على خلاف المخطط الدولي فاسقط التضامن الديني في خضم (الخوف والأغراء) .

لقد كانت أول تجربة مأساوية مرحلة حشد الناس للقتال في جبال كردستان..عندها بدأ الشعور بالمواطنة يتضاءل ،ويقبل الإنسان أن يقتل أخاه وشريكه في وطنه ثم تطور الحال إلى حرب مركبة من دوافع طائفية وأهداف سياسية لصالح استراتجيات إقليمية ومصالح دولية (الثمان سنوات) التي تهاوت فيها اغلب قيم الفروسية -مع رهبة الخوف من موت جماعي زاحف من جبهات القتال الممتدة أكثر من ألف كيلو متر، و رغم شعور المواطن العراقي إنها حرب لأجل الغير.. فقد صار في اغلب اللاوعي ميل الى مع الأناشيد الحماسية التي كانت تغسل الدماغ والتي لم تترك فسحة للإنسان أن يفكر خارج ذلك الضجيج الممنهج الذي كانت وظيفته أن يملأ الفراغ النفسي للإنسان العراقي حتى لا يراجع ولو لساعة لماذا هذه الحرب الضروس؟ لقد سقطت امام زحف الموت القادم من الشرق كل قيم المجد الشخصي،والاعتزاز بالذات ..فانتشرت الوساطة والرشوة،وقبول

الإذلال لكي يتفادى الموت استشهاداً من اجل البوابة الشرقية لقد عاشوا في وطن اختطفته (قوى الجهل، و اجبرته على ان تتصحر فيه القلوب بل تبلدت النفوس و العواطف و أصبح الموت و العوق الجسدي و الترمل و اليتم و المشكلات الاجتماعية يشمل طيفاً واسعاً لم يكن العراقي يتوقعها في مجتمعه فضلا عن تاثيرتها على العقل والأخلاق والسلوك الى جانب ذلك ولقد اغتيلت الشجاعة و قتلت الفروسية ،وأعيد الإنسان إلى دائرة الأشياء بعد أن أغلقت عليه نوافذ الأفكار و القيم.

لقد غيرت حرب الثمان سنوات مساحة كبيرة من قيم الإنسان في العراق.. وتكونت في ذاكرة الناس قصص كثيرة حصلت في تلك السنين (لو كنا سمعناها في الخمسينات لقلنا ((أي شعب يقدر أن يعيش وسط هذه المآسي)) لكننا قبلناها والأمة حينما تقبل أنموذج الذل والانحطاط، تتحول برمتها إلى أغلبية مقهورة مستعبدة مشوهة .. يفتقد رأيها إلى أصالته و فردانيته و يصبح اغلب المجتمع قطيعا يحتاج إلى (عصا و مقصلة) و انتهت الحرب – بلا مبرر – كما بدأت ان بلا مبرر ولم تساءل الناس .. بماذا انتهت حرب راح فيها الملايين من البشر و المليارات من الثروة ؟.. بل كان الناس يستمعون إلى أناشيد الانتصار و النصر و يجبرون على تصديق هذه الخرافة ..وبذلك تكرس سقوط العقلانية المجتمعية بعد ان سقطت العقلانية الفردية.

لقد افرغ هذا النصر (البلد من كل احتياطي مما دفع التجربة الشمولية إلى اشعال حرب جديدة للاستيلاء على منابع النفط – بعد أن وجد انه قد غرر به فخسر كل شيء، وبدل أن يعيد حساباته – لجأ مرة اخرى إلى – القوة غير العاقلة .. و بلع الطعم و كانت النتيجة انه فقد السيادة و أصبح العراق تحت الوصاية الدولية وبدا مسلسل الموت المجاني (جوعا/و مرضا) تحت سيناريو الحصار الاقتصادي فصار التسابق للحصول على الغذاء أو المال بأي وسيلة هو السلوك الاعتيادي..فانهارت قيم (من أين يجب أن يكون مصدر الرزق) لقد سمع الناس آنذاك قصصا من إشكال الخديعة ،والسرقة، والسطو والرشوة والفساد ، والهروب من الخدمة العامة والاشتغال بالإعمال المشبوهة لتحصيل ((المال)) لم يكن العراقيون يعرفونها ولم يمارسها احد منهم حصل ذلك ليتفادى / الإنسان

الموت الخوف من الموت او ((جوعاً و مرضاً)) .
وهكذا أسقطت تجربة الرعب كثيراً من قيم النهوض على مستوى الفرد وقيم الأمة وضاعت الفرص الحقيقية لصنع المستقبل .
وجاء الفتح في ٢٠٠٣ – ولكن ليس فتحاً ليس على يد أبناء الوطن فأنهم ثاروا في ١٩٩١ (ودفعوا تضحيات كبيرة جداً) ولكن تخلت عنهم أمريكا وتأمرت عليهم دول الإقليم وتراجعت (جحافل المعارضة الى منافيها) ألا ما كان يحصل منها بين فترة وأخرى من اجتماع للمعارضة للإفادة من تلك التضحيات الكبيرة كمغانم خاصة لتلك الشخصيات والاحزاب أخيراً جاء الأجانب وأسقطوا النظام المقيت ، وتكسرت المقصلة لكن أقيمت التجربة الديمقراطية بعد ذلك على بنى تحتية مدمرة قيمياً صنعت دمارها ظروف الإنسان العراقي (١٩٥٨ – ٢٠٠٣) .
أن تجربتنا السياسية المعاصرة لم تفكر في فلسفة للمجتمع (المنكوب) ، لإسعافه وإنعاشه وبناء أجياله الجديدة على أسس النهوض والإيثار والصدق والمواطنة ، فلقد اختارت هذه التجربة ان تنطلق من (واقع أنساني قيمي مدمر) ، فسقطت في وعي سياسي مشوه ، ولم تتفهم الى مشكلات الوطن.
ومما يزيد البلاء ان كثيراً من ((أهل الحل والعقد)) يراهنون على بقاء جهل الغالبية ، ولايالون بغيبوبة الوعي ، وتفشي القيم الهابطة ، لأنهم لا يزالون في اجواء الخطاب الذي يحشد وليس الذي يبني الوعي..
وها نحن نحصد كل ذلك : فقد تضاءلت في نفوس أهلنا قضية المشروعية ، وخبت بواعث الواجب وصارت مطامع الافراد هي الحق والقانون والمصلحة العامة والمستقبل وحقوق الفقراء والأيتام فهي المثالية و الطوباوية .
صار : من يقف بوجه ثقافة ((الأستغنام)) من الدولة التي تحولت الى (غنيمة) مهتماً بانه ضد التجربة ومن يقف بوجه هذا التوجه يجب ان يقصى وان يكون بعيداً الكتل التي تصنع القرار جاءت لا تفكر الا بالانتهاب المنظم وغير المنظم سواء على مستوى المال العام ، أو على مقتربات المال العام (الوظائف والمناصب) . . .
لكل ذلك سقط احترام المتصدين جميعاً للكفاءة والمعيارية ، والحرفية والممارسة المهنية ، وتحولت كل هذه القيم الى

كلمات اذا احتجنا إليها رددناها تقية ، وفعلنا خلافها ،
أذن : دعونا نواجه أنفسنا بما حصل في التكون القيمي للشخصية العراقية ، ونعترف – رغم مرارة هذا الاعتراف أننا بحاجة الى برنامج تعليمي – أخلاقي – معرفي يعيد لنا ((ما افتقدناه)) من قيم الصدق و المواطنة و التضامن والاحتشاد من اجل الرفاهية و الدولة الرشيدة ... و المستقبل الواعد.
وهذا يتطلب :

١- ان يكون لدولتنا فلسفة بدءاً من الدستور الى كل السلطات.
٢- ولدولتنا بكل مؤسستها رؤية وأهداف وبرامج ،وخطط معيارية
يكمل بعضه نحو صنع الإنسان أولاً ،ثم حماية الوطن والامة
٣- للتعليم – بكل مراحله فلسفة وهدفاً يرتكز حول – بناء الشخصية الإنسانية الرفيعة .
٤- وان تتزايد الدراسات من اجل اكتشاف أفضل الوسائل نحو خلق مواطن يعشق وطنه ، ويعمل لحاضره ومستقبله ، ويضحي من اجله ويحلم بكبريائه ومجده.
٥- وان توجه كل وسائل الإعلام ضمن حملة وطنية منظمة نحو إدانة السلوك الذي خلقته تجربة العسكر و الجهل والرعب والظلامية (١٩٥٨-٢٠٠٣) .

الخلاصة : بحاجة ان نعيد صناعة الإنسان في العراق فهذا هو الطريق الانجح لمقاومة الفساد .. الذي فشلت كل وسائلنا المعاصرة في إيقافه، و هو الطريق الافضل لمكافحة الإرهاب الذي عجزنا ان نقنع المغرر بهم أنهم واهمون ،و الوسيلة الناجحة لمنازله سلوكيات الاستغنام في أروقة السلطة . . .
هذه دعوة توجهها مجلة (حولية المنتدى) للإخوة العلماء والباحثين يفكروا بها تفكيراً جاداً ومبدعاً ثم تسطر أقلامهم – أوراقاً تلتمس الطريق في ضوء بصيص من نور ينير عقولنا لرؤية غدٍ كريم لكي يصبح العراق :بلداً فيه تجربة حضارية مرموقة بين نهضات الشعوب .